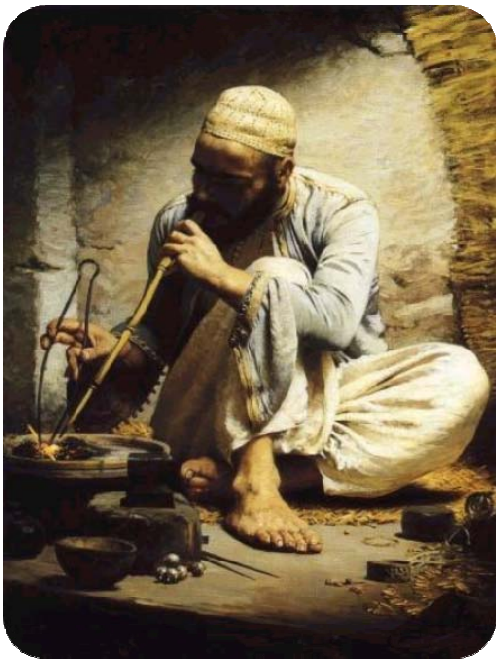

الحرف والحرفيون
في مدينة تلمسان الزيانية

لخضر العربي

أستاذ مساعد التاريخ الوسيط
المركز الجامعي لولاية البيض
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

لخضر العربي، الحرف والحرفيون في مدينة تلمسان الزيانية.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ٨٠ – ٩٢ .

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

إنّ أغلب الدراسات التي أنجزت حول تاريخ الدولة الزيانية أو تاريخ مدينة تلمسان، خاصةً تلك المتعلقة منها بالفترة المتأخرة من العصر الوسيط، كان اهتمام الباحثين فيها منصبًا على الجانب السياسي والفكري، ومع ذلك من باب الإنصاف القول بأنّ بعض تلك الدراسات سلّطت الضوء على بعض جوانب النشاط الاقتصادي الذي شهدته المدينة خلال فترة الوجود الزياني. وسنحاول من خلال هذه الدراسة المتواضعة البحث في واقع الحرف والحرفيين، والتّعرف على طبيعتها، وتعليمها، وتنظيمها، وتوزيعها، وأصناف الممارسين لها.

مُقَدِّمَة

إنّ الحِرَف من الأعمال الإنسانية العريقة، ارتبط ظهورها بظهور الإنسان وحاجته إلى البحث عن الطرق الموجبة لتحصيل القوت والوسائل التي يمكن استعمالها في ذلك، وظلّت الحرف تتطوّر وتتوسع بسبب تفكير الإنسان في الاتخاذ المسكن وصنع اللباس. ولاشك أنّ درجة الحضارة التي عرفتها المجتمعات الإنسانية عبر مسارها الطّويل والحافل، تكشف إلى يومنا هذا عن ذلك التّطور والتّنوع في أساليب وطرق وفنون العمل الحرفي. وقد شكّلت الحرفة آليةً اقتصادية في غاية الأهمية، ساهمت في تقديم أشكال متنوعة من الخدمات للمجتمع في مجال المعاش، والتجارة، والبناء، والتّحويل، والرّعاية الطّبّية؛ كما كان لها دور بارز في بناء الثّروة والاقتصاد.

أولاً: الحِرف في تلمسان

وفي الدولة العبد الوادية، عرفت الحاضرة الزيانية (تلمسان) إقبالاً وتنافسًا على تعلّم الحرف المختلفة من طرف السكان الذين كانوا يعجبون بها ويحبون تعلمها وتعليمها ويكرهون القصور فيها، لكونها تتوفر على كل الإمكانيات الّتي تسمح بذلك، كالأرض الفلاحية الخصبة، وتوفر المناجم المعدنية، والأسواق، وشبكة المواصلات التجارية، واليد الصناعية الفنّيّة. ومن دون أيّ شك كانت مهمّة تعليم الحِرف من اختصاص أصحاب الورشات أو المعلّمين الّذين كانوا يعملون على تكوين الحرفيين وتعليمهم آليات الصّنعة؛ حيث يلتحق التلميذ المبتدئ عندما يقبله المعلم بالورشة، ويبقى تحت التمرين مدّة معينة تمكنه من إجادة الحرفة وإتقانها وتحمّل مشاق التدريب؛ وخلال فترة التّمرّن كان التلميذ يتقاضى أجرًا شهريًا حسب درجة حذقه ومهارته؛ إلى أن يبلغ مبلغ الصانع الحاذق فيستقلّ بحرفته في ورشة جديدة، أو يعمل أجيرًا في ورشة معلّمه. ويؤكد ابن مريم هذه النظرة عندما يذكر أنَّ أحمد ابن محمد بن زكري (ت. ٨٩٩هـ)، قد أدخلته أمه في طِرَازٍ عند معلمٍ ليتعلم الحياكة وبقي عنده حتى تعلم النّسيج وكانت أجرته نصف دينار في الشهر. (ابن مريم، م. ١٩٨٦: ٣٨ - ٣٩).

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ولقد كان في تلمسان العديد من الورشات المؤهلة لذلك، كورشة الخياطة الّتي كانت لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الخياط (عاصر يغمراسن بن زيان) (ابن خلدون، ي. ١٩٨٠: ج ١، ١١٨) بحي القبابين، ومعامل حياكة الصوف بدرب شاكر الّتي كانت ملكًا لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن النجار. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٨-١٨٩). وكان أرباب هذه الورشات لا يستغنون في أعمالهم عن العمّال الأجراء داخل ورشاتهم لإنجاز طلبات النّاس الكثيرة الّتي لا يمكن لصاحب الورشة أن ينجزها بمفرده، لذا يضطر- في كثير من الأحيان- إلى استئجار مَنْ يعلم حذقه بالصّنعة لمساعدته، وكان أبوزيد ابن النجار، يملك معامل لحياكة الصوف الرفيعّ، الذي اشتهرت به مدينة تلمسان، وانفردت به معامل أبي زيد ومنازله بدرب شاكر، كان أغلب دور هذا الدرب ومنازله ملكًا له ومركزًا لعماله وخدامه، كما كان مقرًا لسكناهم (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٩). وبالتّالي يظهر لنا أنّ عدد العمّال المستأجرين في معامل أبي زيد كان لا بأس به، حيث أنّ مساكنهم غشت مساحة كبيرة من الدّرب، كما نستفيد مما سبق أنه كان يتكلف بإقامتهم في الدّرب الذي خصصه لهم.

ولم تكن ممارسة الحرف حكرًا على الرّجال، فقد كانت أغلب النّسوة في المجتمع الزياني تمارسن نشاطات حرفية مختلفة ومتنوعة، كالغزل والنسيج، وحلج القطن، وصناعة الأواني الفخارية، والصباغة، وصناعة الأطباق والقفاف وغيرها، رغبة منهنّ في مساعدة أزواجهنّ، وتلبية حاجيات المنزل؛ فكانت مؤمنة التلمسانية (مستوطنة فاس ودفينة تلمسان) من النساء الزاهدات العابدات تسدّ نفقات عامها من غزل يدها. (ابن قنفذ، ق. ١٩٦٥: ٨٠).

ومن خلال كتب التّراجم والمناقب، يتضح لنا أن طائفة كبيرة من متصوفة مدينة تلمسان امتهنوا حرفًا متعددة، كان بعضها بسيطًا جدًا في بعض الأحيان، حتى عائداتها كانت زهيدة وانصبت في معظمها على منحى تحقيق ما يكفي العيش ويغني عن التّرف والتّلذّذ، وهو مالا يتنافى مع حياة الزهد والتّقشف الّتي اختار المتصوّفة أن يعيشوها. فأحمد بن الحسن الغماري التلمساني (ت. ٨٧٤ هـ)، احترف الحطابة "فكان يخرج للجبال والأراضي القريبة من تلمسان،...، ويجعل حزمة من الحطب على ظهره ويأتي بها لسوق الحطب، ويبيعها هناك"، (ابن صعد، ت. ٢٠٠٤: ٢٠٢) كما كان يشتغل بنسج الدّوم ويجعل منه حزمًا يسارع النّاس لشرائه. وكان أبو العباس ابن القطان (كان معاصرًا لابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة٧٨١ هـ) تسبب بالخياطة ثم بالتجارة، فكان يخرج من تلمسان إلى فاس، وسبتة، وبجاية برسم التجارة، ويعود إلى بلده بالمال الكثير. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٦١). كما كان أبو محمد عبد السّلام التّونسي، يتعيش من حرث يده. وهو ما يبين لنا أنّ المتصوّفة كانوا يولون للعمل اهتمامًا واحترامًا بالغين، كونه رمزًا للتّواضع والتّذلّل، (بوداود، ع. ٢٠٠٣: ٧٥) وفي ذلك إظهار لقيمة اجتماعية هامة، فضلاً عن مساهمتهم في تقديم خدمات مختلفة لأبناء مجتمعهم. (بوداود، ع. ٢٠٠٣: ٧٥).

ولا غرو فإنّ تصنيف الحرف في المجتمع الزياني، قد ارتبط بمفاهيم اقتصادية ترجع النسبة فيها إلى المهنة، ففي كتب المناقب والتّراجم نجد أسماء مختلفة لتلك المفاهيم مثل: الدّبّاغ، الحدّاد، النّجار، الخضّار، الفحّام، الحجّام، البنّاء، الجلاّب، وكلها تدل على ممارسات حرفية زاولها أصحاب تلك التّراجم خاصةً في تراجم القرن السابع وما بعده، وإلى جانبها نجد النسبة إلى القبيلة أو الأصل أو المدينة التّي استوطنها.

ثانيًا: صناع تلمسان وأوصافهم

كانت الحرف في مدينة تلمسان مختلفة ومتنوعة، ففي مساحتها المحدودة والمحاطة بالأسوار تجمع عددٌ كبيرٌ من الصّنّاع والعاملين في القطاع من مختلف الأجناس والملل، متجاورين في الدكاكين، ومتّصلين بعضهم ببعض في معاملاتهم اليومية؛ وعرف صنّاع تلمسان بنشاطهم ومهارتهم كما اشتهروا بإتقان منتوجاتهم، (محمود، ب. ١٩٨٢: ٣٤) ووصفهم الوزّان: "... بأنهم أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة، ويحبون التّمتع بالحياة"؛ كما ذكر أن لباسهم أنيق يشبه ثوب التّجار، "إلاّ أنّهم يرتدون لباسًا قصيرًا، والقليل منهم يتعمّم ويكتفي بوضع قلنسوة بدون ثنايا على رأسهم وينتعلون نعالاً تعلوا حتى نصف الساق". (ليون، إ. ١٩٨٣:ج٢، ٢). وبالرغم من أنّ هذا الرّحالة قد زار تلمسان ووقف على العديد من حوانيت الصّنّاع، ورغم وصفه لبعض القضايا المتعلقة بالصناع كوضعهم الاجتماعي ولباسهم، إلاّ أنه فيما نعتقد أهمل ما هو أهم بالنّسبة إلينا، ألا وهو ما كان يصنع هؤلاء الحرفيون؟ وما هي الصناعات الرائجة آنذاك؟ حتى أنه لم يصف لنا حتى بعض الصناعات المعروفة كالنّسيج والحياكة، وعدد الصّنّاع العاملين فضلاً عن دكاكينهم، بخلاف ما فعل مع مدن أخرى كفاس مثلاً.

رغم أنّ مدينة تلمسان شهدت على عهد الزيانيين نموًا واتساعًا، وتطورًا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية مصداقًا لما ذكره ابن خلدون: "ولم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخطتها تتّسع، والصّروح بها بالآجر والقرميد تعالى وتشاد، إلى أن نزلها آل زيان، واتخذوها دار ملكهم، وكرسيًا لسلطانهم فاختطوا بها القصور المونقة، والمنازل الحافلة، وأغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل النّاس إليها من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية". (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ٧، ١٦١-١٦٢). لكن ما ذكره ابن الحاج النميري حول وصف مصانع تلمسان قد يزيل عنا ذلك اللبس رغم بساطة النص حيث يقول: «ومصانع يعجز عن وصفها كل لسان، ...، قد أحكمت فيها أنواع الصنائع» (ابن الحاج، ن. ١٩٩٠، ٤٨٨).

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وتعدى نمو المدينة إلى خارج أسوارها، فنشأت لها أرباض بحكم تطورها العمراني، ومن تلك الأرباض أو الأحياء الجديدة، ربض العباد إلى الشّرق منها، وربض سيدي الحلوي إلى الشّمال الشّرقي وغيرها من الأرباض. ولا شك أنّ هذا التّوسع العمراني له دلالته الاجتماعية والاقتصادية، من حيث ارتفاع الكثافة السكانية في المدينة، وكثرة الدّور والمنازل، وبالتّالي تطور الاقتصاد والصّناعة، بسبب تعدّد الأسواق والحرف المفضي إلى تعدّد سبل الاسترزاق. وهنا يظهر لنا مدى تأثير العمران في الصّنائع لذلك قالت العامة في البلاد: "إذا تناقص عمرانها إنّها قد ذهب رزقها". (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ١، ٦٨١).

ثالثا: موقف الدولة الزيانية تجاه الحرفيين

ولمّا كان لا بدّ للدولة من الصنائع المختلفة والمتعددة، إمّا في مجال البناء، والتّشييد، والتّجارة، أو في مجال إعداد العدّة الحربية من أجل مواجهة الخطر الخارجي. فالمعلومات الّتي بحوزتنا، تشير إلى أنّ موقف الدولة تجاه الصنّاع والحرفيين كان مشجعًا حيث يذكر يحي ابن خلدون إحدى تلك المواقف الّتي أظهرت معالمها دار الصنعة السعيدة، الّتي كانت تموج بالحرفيين على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم، وتميزوا بإحكام الصنائع، حتى كانت تعرض أعمالهم في كل يوم بين يدي السلطان، ثم تخزّن كلها بالحجر المعدّة لذاك، ويدفع للعاملين أجورهم بالعدل هكذا أبدًا. (ابن خلدون، ي. ٢٠٠٧: ج ٢، ٣٢٣-٣٢٤).

ومن خلال هذا الموقف تتضح لنا عدة ملاحظات:

- أنّ السلاطين الزيانيين - وبخاصة أبو حمود موسى الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ / ١٣٥٩-١٣٨٩م)- استطاعوا أن يجهّزوا ورشة كبيرة تقوم على إمداد الجيش الزّياني بمختلف أنواع السّلاح الحربي.
- أصناف الحرفيين العاملين في دار الصنعة:

الحرفي	عمله	الحرفي	عمله
الدَّرَّاق:	صانع الدُّرق الجلدية، التُّروس.	السرَّاج:	صانع سروج الخيل وغيرها.
الرَّمَّاح:	صانع الرّماح.	اللّجَّام:	صانع ألجمة الخيل والإبل وغيرهما.
الدَّرَّاع:	صانع الدُّروع المختلفة.	الخَبَّاء:	صانع الأخبية أي خِيَمُ الصُّوف.
الوشاء:	نقش الأثواب بالألوان.	النّجّار:	صانع المجانيق، والأقواس، والأبراج.
الحدّاد:	صانع الأسلحة الحديدية وبعض اللّوازم الأُخرى.	الصّائغ:	يعمل على سبك المعادن، وصناعة الحليّ.
الدَّبَّاج:	عمله نقش المصنوعات وتزيينها.	_	_

- أصول الحرفيين العاملين بالورشة، إذْ أنهم كانوا من أجناس مختلفة من النّصارى والروم الأسرى، على اختلاف دياناتهم ولغاتهم.
- مستوى الصّنعة حيث أنّهم كانوا على درجة عالية من الدّقّة والحذق.
- رعاية الخليفة، حيث أنّه كان يعاين ما تنتجه أيديهم من أسلحة يوميًا.
- أنَّ دار الصّنعة كانت تتوفر على خزائن معدة خصيصا لتخزين ما يصنع إلى ساعة الحاجة إليها.
- وأن الفئات العاملة بدار الصّنعة، كانت تدفع لها أجور بحسب ما تصنع، وبالتّالي طريقة التّعامل مع هؤلاء الأسرى كانت مبنية على التسامح وتبادل المنافع.

كذلك من بين مظاهر تشجيع الدولة للصناعة والحرفيين، مساندة المبدعين منهم وتكريمهم مثال ذلك ابن الفحام (كان حيًا سنة ٧٥٨ هـ)، (التّنسي، م.٢٠٠٧: ١٦٢-١٦٣؛ المقري، ت. ١٩٧٨: ج١: ٢٤٦-٢٤٧) مخترع خزانة المنكانة، وهي عبارة عن ساعة معدة بطريقة عجيبة بتماثيل مختلفة، حيث أنَّ ملوك المغرب جعلوا لهذا المخترع عطاءً سنويًا قدره ألف دينارٍ ذهبًا. (ابن خلدون، ي. ١٩٨٠: ج ١، ١١٩). وسعى بنو زيان من عهد يغمراسن بن زيان (٦٣٣-٦٨١هـ/١٢٣٥-١٢٨٢م) إلى تحقيق الأمن والاستقرار، ولو لفترات قصيرة، فقد خاضوا لأجل ذلك العديد من الحروب والمعارك شرقًا وغربًا، وتمكنوا من فرض الأمن في البلاد خاصة في العاصمة (تلمسان) في كثير من الأوقات، ومع هذا الأمن تحركت عجلة الحضارة لاسيما ما تعلق بمجال الحرف، فقد ظهرت صنائع جديدة صاحبت التّطور الجديد للمدينة، ومع تجدّد التّدخّل الأجنبي (الحفصي والمريني)، كانت الدولة دائمًا في حاجة ماسّة إلى صنّاع ماهرين من أجل ترميم وبناء ما تخرّب بفعل الحصار والحروب.

رابعًا: الضرائب على الصناع والحرفيين

وفرضت السلطة الزّيانية الضّرائب على الصنّاع والحرفيين سواء القارّين أو المتنقلين، الّذين كانوا يدفعون المغارم عادةً عند أبواب المدينة، حتى الفلاحين في تلمسان كانوا يدفعون رسومًا على محاصيلهم، وهو ما عَبر عنه ابن الخطيب بقوله: "ولا فلاحة، إلاّ لمَنْ أقام رسم الفلاحة". (ابن الخطيب، ل. دون تاريخ: ١٨٤) وتضمن رسم أراضي ملاتة (سهل بين وهران وتلمسان)، سنة ثمان وخمسين وسبعمائة في الزّوج الواحد منها إلى أربعمائة مُدٍّ كبير، وهو ستون برشالة، زنتها ثلاثة عشر رطلاً، من البرّ، سوى الشّعير والباقلاء". (ابن خلدون، ي. ١٩٨٠: ج ١، ٩٠). وكان الحرفيون التجار يدفعون كذلك الضرائب عند دخولهم أسواق العاصمة، فهذا أبو العباس أحمد بن عمران البجائي اليانوي قدم تلمسان تاجرًا، فنزل عند أبي زيد عبد الرحمن بن الإمام(ت ٧٤٣هـ)، فكان مغرمه ومغرم من جاء معه مائتي دينار ذهبًا، فعرّف به أبو زيد السلطان أبا تاشفين عبد

دورية إلكترونية .محكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الرحمن الأول (حكم: ٧١٨-٧٣٧هـ/١٣١٨-١٣٣٦م) فرفع عنه كلفة المغرم، ووهبه مائتي دينار زيادة على ذلك. (التّنسي، م. ٢٠٠٧: ١٥٢).

وفي غياب المصادر والوثائق، حول النّظام الضّريبي الزّياني، لا نعلم الشّيء الكثير عن الموضوع، وأمام هذا الأمر الواقع، نأمل معرفة ذلك من المصادر الّتي قد تكتشف مستقبلاً. وعلى الرغم من ذلك؛ فإنّ الإدارة الزيانية قامت بتحصيل الضّرائب عن طريق الجباية عبر كل مناطق المملكة الزيانية، لكننا لا نعرف قدر هذه الضرائب؛ أما عن كيفية تحصيلها فنعتقد أنّ الزيانيين قد حافظوا على نفس النّظام الضريبي الذي كان سائدًا زمن دولة الموحدين. (دهينة، ع. ل. ١٩٨٤: ٤٨٧). والضرائب على الحرف كانت تقرر حسب دخل الصّنّاع، ويرجع تقديرها وتحصيلها لأمين كل صنعة من الصنائع في المدينة؛ ويقوم هذا الأمين برفعها إلى المحتسب أو إلى صاحب الأشغال في المدينة الذي يحتفظ بإحصاء شامل لكل الصناعات وأربابها وعمالها. (عزالدين، ع. م. ٢٠٠٣: ٢١٠، ٢١١).

إذن نستطيع القول؛ أنّ المجتمع الزياني خاصة، قد اعتبر الحرف من أهم الطرق الموجبة لجلب القوت وتحصيل الرّزق، لذلك مارستها الكثير من الفئات الاجتماعية، وتأثرت هذه الحرف بدرجة العمران الحضري والبدوي، والملفت للانتباه أنّ هذه الحرف ما تزال العديد منها صامدة في زماننا هذا، رغم أنّ أصولها ترجع إلى عصور خلت، كما أنّها شهدت تطورات وتحسينات تدريجية مع مرور الأزمنة والعصور، محافظة في كل ذلك على جوهرها.

خامسًا: تنظيم الحرف في تلمسان (الطوائف والمجال)

ويبدو أنّ مدينة تلمسان عَرفت نوعًا من التّضامن والتّعاون بين أصحاب كل حرفة كغيرها من المدن الإسلامية في العصر الوسيط، وهو ما أصطلح عليه بنظام النّقابات، (بورويبة، ر. موسى، ل. ١٩٨٤: ٤٩٠) وأرباب الصّنائع، وأصحاب المهن، والاتحادات المهنية، (يوسف، أ. ١٩٨٣: ١٢١-١٣٢) وهي تعابير توحي في مجملها بطبيعة الولاء الذي كان يكنه الحرفي أو الصانع وحتّى المتعلّم إلى أهل حرفته. ومن خلال المصادر هناك الكثير من الدلائل القوية التي تشير إلى وجود نظام الطوائف الحرفية أو الجماعات الحرفية، فقد ذكر التّنسي في معرض حديثه عن أحداث سنة ٨١٤ هـ/ ١٤١١م أنّ: "جماعة الرّحوية" (التّنسي، م. ٢٠٠٧: ٢١٤) وهم عمال الأرحاء الذين يقومون بطحن الحبوب لاستخراج مادة الدقيق منها، تولت هذه الجماعة الحرفية إدخال السلطان عبد الواحد أبي مالك (حكم ٨١٤هـ/١٤١١م-٨٢٧هـ/١٤٢٤م) إلى تلمسان ليلاً بعد أن أبرم عقد الأمان مع الرؤساء والرعية، ولا نجد لهذه الجماعة ذكرًا إلا في هذا المصدر، رغم دورها الكبير وتدخلها حتى في إيصال هذا السلطان إلى سدة الحكم، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على النفوذ الاجتماعي والسياسي لهذه الطائفة الحرفية.

وذكر عبد الكريم المغيلي أنّ سيدي إبراهيم المصمودي (٨٠٤/٨٠٥هـ) :"كان يجلس عند رجل من العطّارين في حانوته" (المغيلي، ع. ك. ١٩٦٨: ٣٤)؛ كما ذكر ابن مرزوق الخطيب أنّ درب سيدي شاكر في تلمسان كان من أهم الدروب المتخصصة في حياكة الملابس الصوفية، وكانت معامل هذا الدرب كلها ملكا لأبي زيد عبد الرحمن ابن النجار، فيها عدد كبير من المعلمين والمتعلمين أو التلاميذ، والخدم، والصناع الأجراء، والحذّاق، وكان أبو زيد هذا في نفس الوقت أمينًا على هذه المعامل والورشات بهذا الدرب (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٨-١٨٩). بالإضافة إلى العديد من الإشارات الأخرى التي سنتناولها في طيات هذا السياق بالدراسة والبحث والتحليل. وبالتالي هذه العبارات أو المفاهيم (جماعة الرحوية، العطارين،...) توحي إلى أصحاب الحرفة الواحدة، كما يظهر من خلالها الولاء الذي يكنه الحرفي لجماعته؛ حيث يتجمع عدد كثير من الصناع أو العمال من مختلف الأجناس، يتقاسمون المجال أو متجاورين في المكان الواحد، متصلين بعضهم ببعض يوميًا في نطاق السوق التي يشغلونها، تجمعهم روابط مختلفة اجتماعية، واقتصادية، وفكرية يؤطرها ويسوسها الدين.

ولمّا كان هذا الوعي بالجماعة، تجمعت كل طائفة في نطاق خاص بها، وتسمّت بنوع الصّنعة أو الحرفة الّتي تزاولها، كما كان يضم نظام الطّوائف أيضًا من يمارسون أعمالاً أخرى أمثال: السّماسرة، والدّلالين، وسائقي الحمير، والحمالين وغيرهم. (لويس، م. ١٩٢٠: ٤٧٣). وهناك جماعات حرفية أخرى كان يجمعها هذا النّظام، كأصحاب المدابغ، والمصابغ ومصانع الكبريت، وغير ذلك من الحرف الّتي لم تكن تتركز في الأسواق، وإنّما خارج أسوار المدينة لعلة الروائح المؤذية المنبعثة منها، (پروفنسال، ل. ١٩٩٠: ٦٦) وهناك الكثير من الحجج تشير إلى وجود طوائف حرفية أخرى لمَنْ لا يملكون محلات أو دكاكين، وإنّما كان عملهم متمركزًا في فضاءات مختلفة كالنّقاشين، والسبّاكين والسّقّائين، وبائعي العصير، والقابلات. (يوسف، أ. ١٩٨٣: ١٢١).

لذا نجد أنَّ الأسواق في تلمسان كانت مقسمة بين هذه الطوائف المختلفة مثل: العشّابين العطّارين، والخرّازين، والخياطين، والنسّاجين، والحاكة، والقبابين، والإسكافيين، والحدادين والصّفارين، والخراطين، والكتبيين (الوراقين)، والفخّارين، وأشار الوزّان إلى أنّها كانت موزعة على مختلف الأحياء والسّاحات والأزقة. (ليون، إ. ١٩٨٣:ج٢، ١٩). وكان لكل حرفة شيخ أو رئيس أطلق عليه اسم "الأمين"، (Dhina, A. 1984: 345) يعيّن على رأس كل طائفة عن طريق الاختيار أو الانتخاب، بحضور المحتسب، وبالتّعاون مع أصحاب الحرف، ويكون ممثلاً للحرفة (الدّوري، ع. ١٩٨٧: ٦٨). ويبدو أنه أصبح لكل حرفة أصولها وأعرافها، حتّى كانت هذه الأعراف مقبولة لدى المحتسب والقاضي في فض النّزاعات المهنية، لخبرة الأمناء والصّنّاع بخبايا الحرف والصّنائع وتجربتهم الطّويلة في معرفة أساليب الحرفيين، وعدم تبصّر القضاة والمحتسبين بها.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ولعلّ من واجبات الأمين: النّظر في شؤون الطائفة، والسّهر على مراقبة الصّنّاع، ومدى احترامهم لقواعد الحرفة، ومعاقبة كل مَنْ يخالف أصولها؛ فعلى سبيل المثال إذا أنتج النّسّاج قطعة قماش تخالف مقاييس الطول والعرض، أو غشّ في مادة النّسيج، وخرج عن المتعارف عليه في ذلك، يقوم الأمين بمصادرتها وتمزيقها، (المجليدي، أ. دون تاريخ: ٥٦) ويعلقها في قارعة السّوق حتّى تكون عبرة لمن تحاكيه نفسه بذلك. كما يساعد الجباه على تحصيل الضرائب؛ وكان وسيطًا ومخاطبًا رسميًا لفض الخصومات بين أهل الحرف والزبائن أو مع أجهزة الدولة، بالإضافة إلى كونه مسؤولاً عن تبليغ مشاكل الحرفة والحرفيين إلى الأطراف المسؤولة في الدولة. (الحسن مغار، م. ٢٠٠٨/٢٠٠٩: ١٦٣).

وقد حاولنا البحث في كتب التّراجم والمناقب لعلنا نجد بعض الأسماء الّتي شغلت منصب الأمين هذا في مدينة تلمسان، وبعد عناء طويل من التّنقيب والبحث، توج عملنا بوجود شخصين عرفا بهذه المهنة، أوّلهما سمي بالأمين، والثّاني عرف بالرئيس، وهما في مجالين مختلفين: **الأوّل**؛ هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن النجار، كان يقيم عمل الحاكة من الصّوف الرّقيق (الرفيع)، الذي كانت تلمسان معروفة ومخصوصة به، واختص به هو كذلك كانت له مواضع وتربيعات بدرب شاكر، وله عمال وخدم كثيرون، وكان تجار البلد يقصدون معامله من أجل التجّهز من منسوجاته، وحتّى تجار البلدان المجاورة؛ بل إنّ ملوك إفريقية والمغرب كانوا يفضّلون ما كان يُعْمَلُ في تلمسان من رفيع الصوف، وإنّما بلغت هذه السّمعة بفضل جهود أبي زيد ابن النّجار. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٨).

ومن الدّلائل على أنّ أبا زيد هذا كان أمينًا على معامل الصّوف وحاكتها في تلمسان، رواية أبي العباس ابن القطان (عاصر ابن مرزوق الخطيب ت. ٧٨١ هـ) التّالية يقول: "أنّ المستنصر (أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء يحيى ابن عبد الواحد ابن أبي حفص، حكم من سنة ٦٤٧ هـ إلى أن توفي ليلة آخر عشر لذي الحجة سنة ٦٧٥ هـ). والأمير أبو حفص (هو أبو حفص عمر ابن أبي زكرياء يحيى، بويع يوم ٢٥ ربيع الثاني ٦٨٣ هـ، توفي يوم ٢٤ ذي الحجة ٦٩٤ هـ) بعث لصاحب تلمسان هدية تشتمل على ثياب رفيعة، قال: ووصل فيها إحرام، ثُمَانِيُ العمل، عليه مكتوب: "بعثه الأمين فلان، أمين تونس، للأمين أبي زيد عبد الرحمان بن النّجار". قال: فنظر الإحرام، فوجده في أكمل عمل، لا يمكن أن يصنع أحسن منه، فقيل له: هذا قد قصد أن يريك غاية ما تنتهي إليه الإقامة من الكتان، ويقول لك: كيفَ يَفْضلُ هذا شيء؟ قال: فأخذه ووزنه، فوجد فيه نحوًا من خمسة أواقٍ ونصف، قال: فبعد زمان، جاء بإحرام كتب عليه: "من ابن النّجار للأمين فلان". فنظر فوجده يزيد طولاً وعرضًا نصف شبر، وينقص أوقية ونصف أوقية". (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٨٩). إذنْ فأبو زيد بن النّجار كان فعلا أمينًا؛ وأيُّ أمين هو؟ يتمتع بأحكام صنعة الصّوف في معامله، وكافة معامل تلمسان آنذاك كانت تحت أمانته، يتفقّدها، وصنّاعها، ونسيجها حتّى أصبحت لسلعه شهرة ضاهى بها معامل إفريقية والمغرب.

أمّا **الثّاني**؛ فهو موسى بن سمويل بن يهودا الإسرائيلي (كان حيًا سنة ٨٦٦ هـ)، ذكره عبد الباسط في رحلته قائلاً: "لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطّب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه، انتهت إليه الرّياسة في الطّب في تلمسان، وهو مقرب مختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق في المملكة لعقله ورأيه". (مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري، ع: ١٧، ٢٠٠١: ١٥).

ومن خلال هذا القول تتضح لنا بعض الملاحظات:

- أن الطب كان يدرّس في تلمسان حتّى النّصف الثّاني من القرن التّاسع الهجري، وقد درس عبد الباسط بن خليل على مجموعة من الأطباء الّذين اشتهروا بتدريس الطّب خلال هذه الفترة، وعملوا على تكوين الطّلبة وتدريبهم على التّطبيب.
- أنّ المكانة الّتي وصل إليها أطباء تلمسان لاسيما موسى بن سمويل الطبيب أهم دليل على تقدم مهنة الطّب.
- والأمر الأهم من ذلك أنّ الأطباء أصبح لديهم طائفة خاصة بهم بدليل أنّ موسى بن سمويل انتهت إليه رئاسة الطّب والإشراف على الأطباء.

وبالتّالي أصبح لدينا اصطلاحان اثنان، اصطلاح الأمين الذي يشرف ممثله على الحرف المختلفة، واصطلاح الرئيس وهو خاص فقط بالطّبيب المجيد، الماهر، الحاذق، الّذي يتولى الإشراف على الأطباء، بعد أن ضرب بحظ وافر في وصف الأمراض وأنواع الأدوية اللاّزمة لها والصيدلية وتركيب الأدوية والأدهان. ولا شك أنّ اهتمام السّلطة قد ساهم في تنظيم أسواق الحرف والتجارات، والقيام على إصلاحها بتعيين المحتسبين والأمناء والعرفاء، وتوفير الأمن لها نهارًا وحراستها ليلاً. (بوتشيش، إ. ق، ٢٠٠٢: ١٠٠).

وفي هذا الشأن، كان لوظيفة الحسبة دور هام في تنظيم الصّنائع، وحماية الزبائن وتسهيل المعاملات، فكان المحتسب ملازمًا للأسواق ويقوم بجولات تفقّديّة متكرّرة، يركب في كل وقت ويدور على السوّقة والباعة، ويبحث الدكاكين والطرقات، وحوله أعوانه، ومعهم المكاييل والموازين، والأرطال ويتفقّد الأطعمة، وما يغشونه. (ابن الإخوة، م. ١٩٣٧: ١١٩). وكان المحتسب إذا أراد أن يكشف على شيء يصطحب معه واحدًا من الأمناء الثّقات فيعتمد على قوله، فإن ثبت عنده شيء من الزّيف والغش، عزّر الفاعل حسب جرمه، وشهر بغشه أمام النّاس وفي الأسواق. (محمد، ع. ٢٠٠٦: ٦٩). ولم يكن دور المحتسب مقتصرًا على مراقبة الأسواق وحسب، بل كان في مرات عديدة يطوف على الأطباء والصيادلة والمؤدبين، والمدرسين، فيتفقد أحوالهم ويعاين محلاتهم، وكان يحضر معه مَنْ يوثق به من الأطباء والعلماء، ويختبرهم بحضرته، فإن علم أنّهم قد

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

امتلكوا القدر الكامل من المعرفة والدّراية الّتي تؤهلهم لممارسة مهنهم على أفضل وجه، خلّى سبيلهم وأعمالهم، وإلاّ عاقبهم بالضّرب أو السجن. (العقباني، م. 1967: 86).

ولعلّ الدولة الزيانية كانت تدعم نظام الحسبة، من خلال بعض المقاييس والمكاييل السّلطانية الّتي من شأنها رفع النّزاعات وحلّ الخصومات بسهولة، وحتى يلتزم بها التّجّار في معاملاتهم. (Brosselard, ch. 1861: 14-30) فقد كان بسوق القيسارية (سوق البز) في تلمسان ذراع طولها ثمانية وأربعون سنتيمترًا فأمر السّلطان أبو تاشفين الأول، (حكم ٧١٨-٧٣٧هـ/١٣١٨-١٣٣٧م) سنة ثمان وعشرين وسبعمائة (١٣٢٨م)، بإبدالها بأخرى تقصر عنها بسنتيمتر واحد (الطمار، م. ٢٠٠٧: ١٣٤) وحُفِرَ هذا المقياس أو الذّراع على لوحة رخامية وعلقت بالسّوق المذكورة، فأصبحت قبلة لباعة القماش ومشتريه للتأكد من صحة القياس فيما لو راودهم الشّك أو تنازعوا بشأنه. كما وضع هذا السلطان صاعًا - عرف بالتّاشفيني – يكون أساسًا لمكاييل السّوق، وعرف بعد ذلك باسم: "الوهراني"، أخذ به النّاس إلى عهد قاسم العقباني قاضي تلمسان المتوفى سنة ٨٥٤ هـ. (العقباني، م. 1967: ١٠٥). وقد حاولنا من خلال كتب التّراجم والمناقب، البحث عن بعض الشّخصيات الّتي شغلت وظيفة الحسبة في أسواق تلمسان، إلاّ أنّ أملنا أصطدم بجدار الخيبة، بسبب عدم وجود أخبار كافية حول المحتسبين، وانعدام أسماءهم حتّى في المصادر الّتي انفردت بالتّرجمة لأبناء تلمسان من علماء وقضاة ومتصوفة وغيرهم.

أمّا من حيث الإنتاج العلمي في موضوع الحسبة؛ فيعتبر محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني مصنّف كتاب: "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر" يعتبر الوحيد الّذي ألّف في هذا الميدان، خلال فترة القرن التاسع الهجري، إذ لم يصلنا غيره (موسى، ل. ٢٠٠٢: ٦٠) وفي طيّات الكتاب نجد عدة نوازل وقعت في حواضر بلاد المغرب، بعضها يتعلق بمدينة تلمسان، وكذلك إشارات رائعة رصدت بعض العادات المتبعة في بيع اللحم، والخبز وغيرها كما تضمن الكتاب بعض التّصرّفات غير اللاّئقة من بعض المحتسبين في ذلك العصر، وفي هذا المجال يبدي المؤلف أسفه العميق حول ما آلت إليه خطة الحسبة من تدهور، وما عرفته ذممُ المشتغلين بها من فساد. (موسى، ل. ٢٠٠٢: ٦١).

وبالرغم من مظاهر التنظيم والتّأطير -ذكرناها سابقًا- الّتي سعى السلاطين والقضاة والمحتسبون على إرسائها بين صفوف الرعية، إلاّ أنّ المجتمع الزياني عَرف العديد من المخالفات الشّرعية بين المتعاملين، بل حتّى من طرف المحتسبين أنفسهم؛ ومن بين هذه المخالفات الّتي أصبحت عادة كما أشار إلى ذلك العقباني: "وكذلك تقررت العادة ببلدنا تلمسان أنّ ما يبيعه الجزار من اللّحم يدخل في وزنه شيء من الكرش والمصران، على قدر شدة الثّمن وقلته، إلاّ أنّ ذلك لا ينضبط تساويه بين جميع النّاس على نسبة محفوظة من كل ثمن ومثمون، وإنّما يختلف بحسب اختلاف مَنْ يتقي بأسه من المستضعف الّذي لا ناصر له إلا الله"؛ (العقباني، م. 1967: ١١٤) ويضيف على وجه التّفصيل: "فالأول يحمل القليل من الكرش وقد لا يحمل شيئًا بحسب اختلاف درجاتهم والآخر يحمل الكثير من مصابته كرشًا ومصرانًا". (العقباني، م. 1967: ١١٤).

ثم يعلّق على فعل الجزارين هذا قائلاً: "... وما ذلك إلاّ من سوء دينهم وضعف يقينهم وأمنهم العقوبة بولاية مَنْ لا يتقي الله ولا يخافه عليهم، فيضيع حقوق المسلمين بما يناله، ينيلونه من رشوة سحت لا يسمن ولا يغني من جوع". (العقباني، م. 1967: ١١٤). كما اعتاد بعض الخبازين وأصحاب الأفران، أن لا يتركوا الخبز حتّى ينضج ويطيب للأكل بل كانوا يطرحونه عند أصحاب الحوانيت قبل أن يحين ذلك؛ (العقباني، م. 1967: ١١٨) وكان المحتسب عوضًا من أن يقوم بمصادرته ويمنع بيعه، ويؤدب الفرّان وصاحب الحانوت، كان يعرض عنهم، لأنّهم كانوا يؤدون له الرشاوى؛ (العقباني، م. 1967: ١١٨). ويرى العقباني أنّه من الواجب الاحتساب على الوالي عليهم قبلهم ويكون بالأدب المبرح. (العقباني، م. 1967: ١١٨).

ويبدو أنّ خطّة الحسبة قد شهدت تراجعًا وتدهورًا على عهد المؤلف (القرن التاسع الهجري) بسبب فساد ذمم المحتسبين وارتشائهم من بائعي اللّحم، وأصحاب الأفران والخبّازين، بعدما كانت من أوليات الشريعة ظاهرًا وباطنًا؛ (العقباني، م. 1967: ١١٤). ولم يكن هذا الوضع حبيس مدينة تلمسان، بل شهدت العديد من مدن المغرب الإسلامي – كتونس وفاس- ظواهر مماثلة. ونعتقد أنّ سبب هذه المحنة يرجع إلى الأوضاع الفوضوية الّتي كانت تعيشها دول المغرب الإسلامي عامة خلال القرون الثّلاثة الأخيرة من العصر الوسيط؛ والحروب فيما بين الدول من أجل التّوسع على مناطق جديدة، وبالتّالي الانشغال بهذا المجال وغيره، هيأ الجو المناسب لظهور بعض ضعاف الدّين مَنْ لا يرقبون إلاًّ ولا ذمّةً في أحد من المؤمنين، (العقباني، م. 1967: ١١٤). وخروجهم عن النّظام العام الذي يحمي حقوق المسلمين ويعاقب عليها.

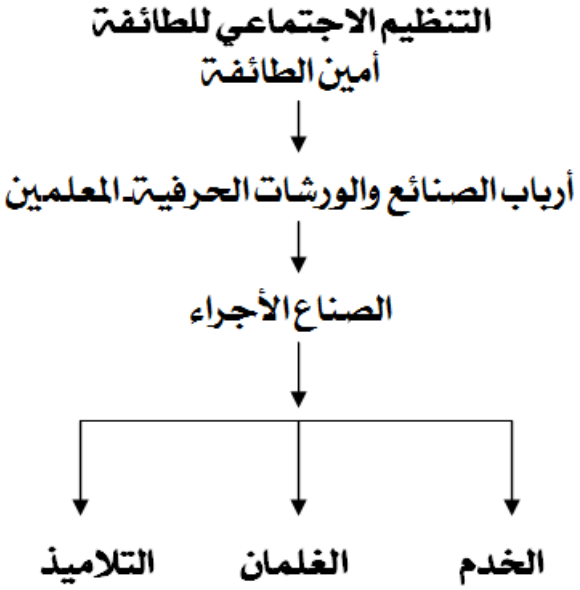

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

تتكون الطائفة من العناصر التالية:

الأمين: يُعين على رأس كل طائفة حرفية، من طرف المحتسب وأرباب الحرفة، ويكون ممثلاً للحرفة. ومهمته: (النظر في شؤون الطائفة. ومراقبة مدى احترام الصناع لقواعد الحرفة وأعرافها، ومعاقبة كل مَنْ يخالفها. وفض الخصومات بين أصحاب الحرف. ومساعدة الجباه في عملية تحصيل الضرائب. ومرافقة المحتسب في جولاته التفتيشية بالأسواق والورشات. وتبليغ مشاكل الحرفيين إلى الأطراف المسئولة في الدولة).

أرباب الصنائع/والمعلمين: وهم أصحاب الورشات: (يشرفون على إنجاز الأعمال وتوجيهها. ويتابعون عمل الصناع الأجراء. كما يتولون مهمّة تعليم الصنعة للتلاميذ الجدد).

الصناع الأجراء: يستخدمهم بهم صاحب الورشة أو المعلم في إنجاز أعماله إذا كانت كثيرة، وهم أصحاب خبرة وحذق بالصنعة، ويدفع لهم أجرة لقاء ذلك.

الخدم أو الغلمان: يستخدمهم المعلم أو رب الورشة لإيصال المصنوعات إلى منازل أصحابها بالأحياء. كما يرسلهم في حاجته، ويستجلب بهم سلعته، على مقابل يدفعه لهم.

التلاميذ: وهم الملتحقون الجدد بالورشة بغرض تعلم الصنعة، ويسهر المعلم على تدريبهم أصول الصنعة وطرقها وأدواتها، ويحثهم على إجادتها وإتقانها، ويتلقون أجرًا شهريًا على ذلك.

التنظيم الاقتصادي للحرف:

ويضم هذا الإطار أهم الأطراف المساهمة في التأطير الاقتصادي للحرف من حيث: إحصائها، وتعيين المشرفين عليها، وجمع الضرائب،...إلخ، وهم:

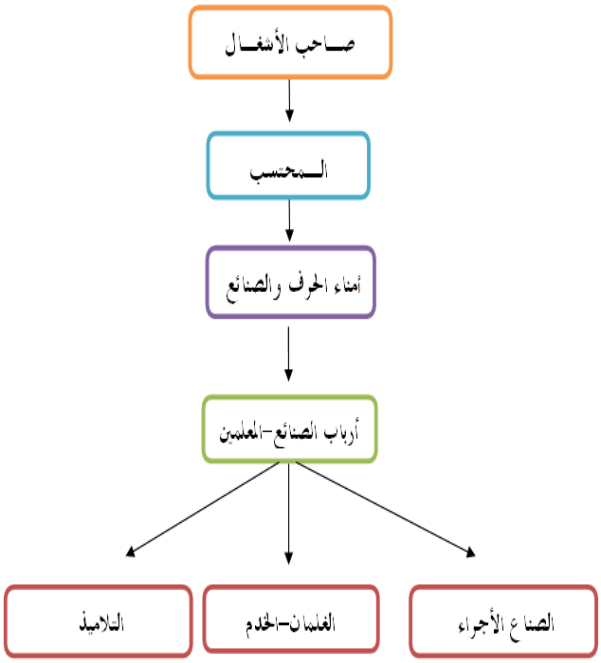

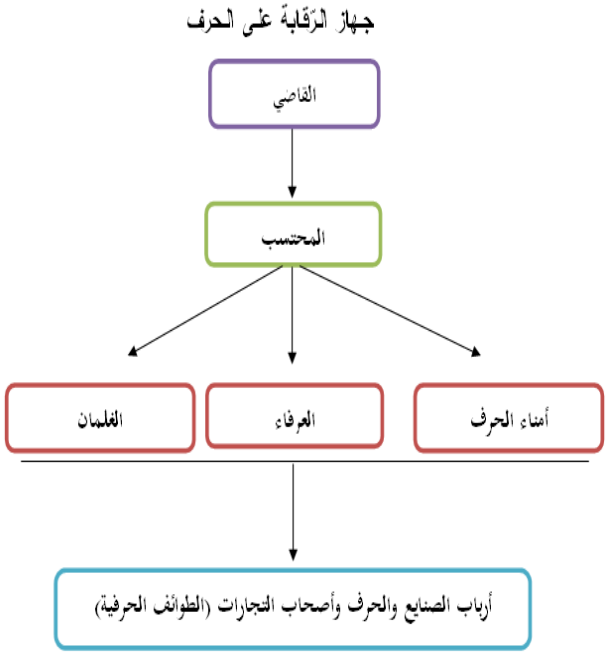

دور هذا الجهاز مراقبة الحرف والأعمال، وقمع الغش والمخالفات ويتكون من:

قاضي الجماعة: القاضي العام للبلد، يعين المحتسب، ويتدخل في حل القضايا التي قد يعجز المحتسب عن حلها أو أنها تتجاوز سلطته.

المحتسب: يعينه القاضي مهمته الرئيسية تتلخص في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بـ: (مراقبة الأسواق والمعاملات التجارية. ومحاربة الغش ومعاقبة المخالفين. وتفقد الورشات، والمكاتب، .... وفك النزاعات. وتفقد المقاييس والمكاييل والأوزان).

الأمين: سبق الإشارة إلى دوره.

العرفاء: وهم من أهل الحرف وأعرفهم بها، يعينهم القاضي لمساعدة المحتسب، ويرافقونه في جولاته يختبر عن طريقهم أحوال الصناع وما يصنعون، فمثلاً يعرض عليهم لبسًا ما ليروا هل يوافق الأصول أم لا؟ وبرأيهم ذاك يحدد حكم المصنوع ووضع الصانع.

الغلمان: يعينهم المحتسب، ويختبر بهم أحوال الباعة والحرفيين، كأن يبعث أحدهم ليشتري لحمًا من الجزار، ثم يأتيه به فينظر المحتسب في نوع اللحم المباع، ثم يتأكد من وزنه، فإن ظهر غش الجزار عوقب بقدر جرمه وأذيته للناس.

أرباب الصنائع وأصحاب التجارات: وهم الطرف المُراقَبُ.

سادسًا: الورشات الحرفية وأصناف الحرفيين

وكانت النّشاطات الحرفية- في معظمها- تتمّ في الورشات الصّناعية الّتي كانت ملكيتها ترجع في بعض الأحيان لأسرة واحدة، كأسرة أولاد ابن حسين،(ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ٢٧٥) الّذين كانت لهم ورشة خاصة لخراطة الخشب بجانب الجامع الأعظم في تلمسان من جهة الغرب، وكان لهم عقب يحترفون بصناعة الخرط

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وشبهه، (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ٢٧٥). وأسرة أبي زيد عبد الرحمن ابن النجار صاحب معامل الحياكة بدرب شاكر، كذلك كانت هناك ورشة حرفية ومحلات تجارية بالمدينة مختصة في ترصيع ما يصنع فيها وهي للجّد الخامس لأبي عبد الله محمد الرّصاع. (الفهرس، ١٩٦٧: "م").

وفي أحيان أخرى كانت ورشات بعض الحرف ملكًا لشخص واحد أو لعدة أشخاص فبالنسبة للحرفة التّي تكون ملكية ورشتها لشخص واحد، كالخياط، والنّسّاج، والإسكافي، والحدّاد وغيرهم، فأبو العباس ابن القطان كانت له حانوت بسوق القيسارية في تلمسان، يشتغل فيها بالخياطة والتجارة؛ وفي الحالة الّتي تكون الورشة ملكًا لعدة أشخاص أو شركاء، كورشات الصباغة والدباغة، واستخراج المعادن، وبناء السفن، كونها تحتاج إلى أكثر من حرفي واحد، بل لعدة محترفين بسبب تداخل الحرف بعضها ببعض، ووقوع بعضها مكملة لأخرى، "إذ قد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها". (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ١، ٦٨٠). كما لا يمكن لأي صانع مهما كانت حرفته أن يمتلك زمام صنعة أخرى، ويعلّل ذلك ابن خلدون بقوله: "أنَّ الملكات صفات للنفس وألوان، فلا تزدحم دفعةً"، (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ١، ٧٢١). فالخيّاط مثلاً إذا أتقن ملكة الخياطة وضبطها، واستقرت في نفسه، فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء". (ابن خلدون، ع. ١٩٧٩: مج ١، ٧٢٢). ونحن نعتقد أن رأي ابن خلدون معقول، لأن الواقع والتّجربة تثبت ذلك.

وتشير كتب النّوازل إلى وجود نوع آخر من الحرفيين إلى جانب الصّنّاع المتفردين بحرفهم عرفوا بالصّنّاع الأجراء، كانوا يعملون داخل الورشات الخاصة، أو كان يستعملهم كثير من الأعيان في أعمالهم وشغلهم. (الونشريسي، أ. ١٩٨١: ج٢: ٤٩٦). ويبدو أنّ الاتفاق حول أجرة العمل كان يتمّ مسبقًا بين الصانع ورب العمل، ورغم هذا إلاّ أنّ هذه الصّفقات كانت تتعثر في كثير من الأحيان بسبب الخلاف بين الطرفين. (الونشريسي، أ. ١٩٨١: ج ٣، ٢٢١/ ج ٩: ٨٠). ويضاف إلى هؤلاء الصّنّاع، العمّال الأجراء الّذين كانوا يعملون في نشاطات مختلفة كمساعدين في الحقول، أو في ورشات البناء، واستخراج المعادن، فكان الفلاّحون يستأجرون هؤلاء في مواسم الجني والحصاد، (الونشريسي، أ. ١٩٨١: ج٦: ٣٢٥) كموسم جمع الزّيتون وجمع الخضر، وحصد ودرس الحبوب والحرث، و البذر.

سابعًا: وراثة الحرفة

وكانت الحرفة تقليدًا راسخًا لدى العديد من العائلات التلمسانية الزيانية، تُتَوارثُ من جيل إلى آخر، حريصة أن تبقى ملكة الصّنعة وتقنياتها قائمة، حتّى قيل: "صَنْعَةٌ وَلْدَكْ، وَلَوْ كَانَ حَشّاشْ" أو "صَنْعَةٌ بُوكْ لا يَغَلْبُوكْ" (الزجّالي، أ. ي، د.ت: قسم ٢/ ١٥٨٢: ٣٥٩)، فكان الأب يحرص على تدريب أبنائه أصول الحرفة وأسرارها؛ وسنحاول أن نعالج هذه القضية عن طريق بعض الأسماء الحرفية الّتي حافظت على تداول الحرفة بين أبنائها لعدة أجيال، من خلال المصادر الّتي بين أيدينا.

ذكر ابن مرزوق الخطيب أنّ أبا علي حسين بن الجلاّب، كان من أرباب الأموال الطائلة في تلمسان، يتسبب بجلب الغنم من ضواحي البلد ويبيعها في أسواق تلمسان؛ ويقول أنّ هذه الحرفة كانت حرفة والده الّذي كان يجلب الغنم من جهة قوم صالحين ويبيعها. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ١٦٢). وكان أولاد ابن حسين انقرضت بيتهم بعد أن كان لهمْ عقبٌ يتحرفون بخرط الخشب وشبهه، بورشة كانت لهم بالجانب الغربي للجامع الأعظم. (ابن مرزوق، خ. ٢٠٠٨: ٢٧٥). إذن من خلال هذه العيّنات يتضح أنّ بعض الصّنّاع -إن لم نقل معظمهم- قد نقلوا تجربتهم ومهاراتهم الحرفية إلى أبنائهم، وعلّموها لهم، وهو الأمر الّذي حدث مع حسين بن الجلاّب الّذي كان تاجرًا يهتمُّ بجلب الغنم من الأماكن القريبة من تلمسان ويبيعها في أسواق المدينة الخاصة بالماشية، وهي مهنة أبيه من قبل، وبالتّالي ابن الجلاّب ورث عن أبيه حرفة جلب الغنم، وقد ساهم في الحفاظ على وجودها، وربما يكون قد ورّثها هو كذلك لبنيه. بينما أولاد ابن حسين كان أبناؤهم يشتغلون بالتّجارة وخرط الخشب -بالموضع المذكور- وهي حرفة آبائهم، لكنهم هلكوا ولم يبق منهم أحد، إلاّ أن هلاكهم ليس بالضرورة يعني هلاك حرفتهم فربما وجد من احترفها من أهل المدينة.

ثامنًا: التوزيع المجالي للحرف في تلمسان

وعرفت أسواق الصنائع والتّجارات في تلمسان عامة تنظيمًا على مستوى المواقع الّتي قسّم إليها السوق، حسب نوعية الحرف أو حسب البضائع المعروضة للبيع، فقد خُصِصَ لكل منها مكان معين للبيع من السّوق؛ ومن بين مظاهر تنظيم الأسواق أيضًا، وجود أسواق أو رحبات أو قيساريات متخصّصة في بيع البز(القماش)، وأخرى للأعشاب والعطور، وأخرى للغزل وبعضها للحبوب والخضر، وبعضها للأحصرة والبسط، وهكذا دواليك مع بقيّة الصّناعات والعروض. ورُوعي في توزيع الحرف وتنظيمها داخل المجال العمراني عدّة اعتبارات منها:

- يخضع التنظيم والتوزيع في كثير من الأحيان لتعاليم الدين السمحة، والأخلاق والآداب الاجتماعية.
- مراعاة مصلحة الناس العامة على المصلحة الخاصة للحرفيين.
- إبعاد بعض الحرف عن المجال العمراني والتي تشكل خطرًا كبيرًا على السكان، أو مضايقات يومية لهم: من جراء الضجيج، أو النار والرماد، أو الرائحة الكريهة، كالدباغة، والحدادة، وصناعة الفخار.
- وضع بعض الحرف في أماكن تساعدها على ممارسة نشاطها، بحيث تكون قريبة من الماء والساحات الواسعة، مثلاً: لما كانت الأرحاء تحتاج إلى المياه لإدارتها، وتجنبا للضجيج الناتج عن حركتها، والذي قد يؤذي الناس، جعلت هذه الأرحاء على ضفاف وادي الوريط، ونهر الصفصيف، وخارج باب كشوط من تلمسان.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

خاتمة

يمكننا الآن استخلاص نتيجة هامة وهي؛ أن مدينة تلمسان عرفت ظهور تنظيمات داخل الحرف، وعلى مستوى الورشات، والأسواق، فكان لكل حرفة أمين، أو رئيس، يعين على رأس كل طائفة، يختار من طرف أهل الطّائفة وبحضور القاضي والمحتسب، وكان المعلّم في الورشة يلقّن التّلاميذ أصول الصّنعة وأساليب الإبداع. وهذا ما يؤكد أقدمية التّنظيمات الحرفية في تلمسان وبلاد المغرب الأوسط، وأهميتها في تأطير العمل الحرفي من خلال الأدوار الّتي كانت تؤديها الأطراف المنظّمة؛ ويؤكد أيضًا أنّ المجتمع الزّياني خلال الفترة المدروسة كان مجتمعًا منظّمًا تنظيمًا محكمًا، وكان هذا التنظيم يتأثر في بعض الأحيان بالحروب والكوارث، بل إنّ هذه المؤثّرات كشفت عن العديد من العلاقات الاجتماعية الرّاقية، كالتّعاون والتّضامن زمن المسغبة والحروب، وحتّى مؤسسات الدّولة مثل البيمارستانات، والقصور، والمخازن شاركت في تقوية هذه العلاقات.

الملاحق

جدول رقم (١) أسماء الحرفيين وورشاتهم في مدينة تلمسان

الحِرَفْ	أشهر من زاولها	موقعها في المدينة	ملاحظات	المصدر/المرجع
الصباغة:	-	بربض العبّاد و قرب حمام الصّباغين.	عدد كثير من الصبّاغين.	-الوزّان، **وصف افريقية**،ج٢،ص٢٤.
الجلابة:	أبو علي حسين بن الجلاّب.	سوق الدّواب في تلمسان.	كان يحترف بمهنة آبائه، يقوم بجلب الغنم ويبيعها بالسّوق المذكور.	-ابن مرزوق الخطيب، **المناقب المرزوقية**، ص١٦٢.
الحطابة وصناعة الفحم:	أبو العبّاس أحمد الغماري (ت٨٧٤هـ).	تلمسان.	كان يحتطِبُ من الأراضي والجبال القريبة من المدينة، ويبيعه ما يجلبه بسوقها.	-ابن صعد التلمساني، **روضة النسرين** ، ص٢٠٢.
نسج الدوم وصناعة الأطباق:	أبو العبّاس أحمد الغماري (ت٨٧٤هـ).	تلمسان.	كان يشتغل بنسج الدَّوم.	- **نفسه**، ص١٩٥.
	حدُّوش بن التَّيْرَتْ العبد الوادي.	قيصرية تلمسان.	كان يبيع الأطباق والأدوات المصنوعة من الدّوم والحلفاء.	-ابن مريم، **المصدر السابق**، ص ٩٣.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الحِرَفْ	أشهر من زاولها	موقعها في المدينة	ملاحظات	المصدر/المرجع
الحِيَاكَةُ:	أبو زيد عبد الرحمن بن النجار.	معامل الصّوف بدرب شاكر (تلمسان).	كان يحيكُ الصّوف الرّفيع، وفي نفس الوقت أمين على معامل الحياكة بالمدينة.	-ابن مرزوق، **المصدر السابق**، ص ١٨٨، ١٨٩.
	أحمد بن محمد بن زكري التلمساني المتوفي سنة ٨٩٩هـ	ورشة في تلمسان.	أدخلته فيها أمه ليتعلّم الحياكة و الطّرز.	-ابن مريم، **المصدر السابق**، ص ٣٨،٣٩.
الخياطة:	أبو إسحاق إبراهيم بن علي الخيّاط .	بحانوته في حي القبّابين بتلمسان.	كان معاصرًا ليغمراسن بن زيان.	-ابن مرزوق، **المصدر السابق**، ص ١٨٠، ١٨١. -**نفسه**،ص٥٧.
السّكافَةُ (إصلاح الأحذية):	علي بن المعلّم.	سوق الإسكافيين بتلمسان.	وهو والد الفقيه الكاتب صاحب الأشغال **منديل بن المعلم** بدولة يغمراسن بن زيان.	-ابن الأحمر، **الدولة الزيانية**،ص٦٢.
صناعة الخَرْطِ (الخراطةُ):	أولاد بن حسين .	في حانوت كانت لهم بالجانب الغربي من الجامع الأعظم، عند الباب الأوسط.	كانوا أئمّة لهذا الجامع، ومن عدول البلد.	-ابن مرزوق، **المصدر السابق**، ص٢٧٥.
النِّجارة:	أبو العبّاس أحمد بن مرزوق(ت٧٤١هـ)	تلمسان.	كانت عنده أدوات النجارة، يصنع بها ما يحتاج إليه في داره.	-**نفسه**، ص٢٤٥.
النّسخ والوراقة	أبو عبد الله محمد بن الحدّاد الوادي آشي.	في خزائن بتلمسان	أحد الأدباء المهاجرين من الأندلس، نسخ في تلمسان نحو من مائة سفر.	-المقرّي ،**أزهار الرّياض في أخبار عياض**،ج١،ص٧١/ج٣ ،ص٣٠٥- ٣٠٨ .
التَّسْفيرُ (التّجليد):	أبو عبد الله محمّد بن يحي الباهلي البجائي المسفّر (ت٧٤٣هـ).	كان يقيم بتلمسان.	-	-ابن مريم، **المصدر السابق**، ص٢٢٧.

الحِرَفْ	أشهر من زاولها	موقعها في المدينة	ملاحظات	المصدر/المرجع
السَّكَاكَةُ (ضرب السِّكَّة):	أسرة بني الملاح القرطبية.	قصر المشور بتلمسان.	على عهد يغمراسن بن زيان ،وولده عثمان، وفي دولة أبي حمو .	-ابن خلدون، **ديوان العبر**، المجلد ٧، ص ٢١٧. -ابن خلدون يحي، **المصدر السابق**، ج١، ص٢١٣.
البناء:	أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد الدَّلاَيلي.	تلمسان.	بنى دار ابن مروة في حدود ٦٢٩هـ.	-ابن مرزوق، **المصدر السابق**، ص١٤٩.
الجَصَاصَةُ:	محمد ابن مرزوق التلمساني (ت٧٨١هـ) وعمُّهُ أبو عبد الله محمد بن محمد ابن مرزوق (ت٧٣٣هـ).	تلمسان.	قاما بعمل زّخارف الجصّ في المسجد الجامع بالعباد	-ابن مرزوق الخطيب،**المسند الصحيح الحسن**،ص٤٦٣. -المناقب، **المصدر السابق**، ص١٨٨.
صناعة الصابون:	-	بذراع الصابون في تلمسان.	-	-ابن خلدون يحي، **المصدر السابق**، ج١، ص٢٠٩/ ج٢، ص ٣٠٦.
صناعة القرميد والآجر:	-	باب القرمادين و أقادير.	-	-محمد الطّمار، **تلمسان عبر العصور**، ص١٥.
الفخَّارُ والخَزَفُ:	-	باب العقبة، عين القويدس، أقادير، و وراء السور الشمالي للمدينة.	صناعة الأواني المختلفة.	-الحاج محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان**، ص٣٨.
الحجامةُ:	-	درب الحجّامين.	-	-حداد مباركة، تلمسان، ص ٣٢،٤١.
التَّطْبِيْبُ (صناعة الطِّبّ):	أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الشّاطبي التّلمساني	قصر المشور.	كان طبيبًا لأبي تاشفين (٧١٨-٧٣٧هـ).	-ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص ٢٣٠.
	علي بن فشوش التلمساني(ق ٩هـ)	لعلَّه ببيمارستان المدينة.	كان يدرّس الطّب للطلبة، ويعمل على تدريبهم أصول المهنة، وطريقة العمل في معالجة المريض، وكيفية اعداد الأدوية والأدهان.	**مشاهدات عبد الباسط بن خليل في بلاد المغرب من خلال مخطوط الرّوض الباسم**، عبد الباسط بن خليل، ص١٥.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الحِرَفْ	أشهر من زاولها	موقعها في المدينة	ملاحظات	المصدر/المرجع
	موسى بن سمويل بن يهوذا الإسرائيلي كان حياً سنة ٨٦٦هـ	تلمسان.	كان من أطباء البلاط، مهر في صناعة الطّب وتدريسه، كما كان رئيسا للأطبّاء بالمدينة.	-نفسه.
طحن الحبوب:	جماعة الرحوية	على ضفاف وادي الوريط ونهر الصفصيف وخارج باب كشوط.	ذكر الباحث بروسلار أن عدد الأرحاء بتلمسان يقارب المائة.	- التنسي، **المصدر السابق**، ص ٢٤٥.
حرفة القباب:	/	حي القبابين بتلمسان	صانع القباقب وهي النعال الخشبية.	-ابن مرزوق، **المناقب**، **المصدر السابق**، ص ١٨٠.
حرفة القصارة:	/	في راس القصارين بتلمسان	تنظيف الثياب وتبييضها.	-ابن صعد التلمساني، **روضة النسرين** ، ص١٢٦، ١٢٧.
حرفة الغسالين:	/	قرب حمام الطبول بتلمسان	وهم على ما نعتقد المشتغلون بغسل الصوف.	- التنسي، **المصدر السابق**، الهامش رقم: ٤، ص ٢٥٥.
حرفة الخرز:	/	بالخرازين في تلمسان	وهم المشتغلون بخرز الجلد وصناعة الأحذية والسروج وغيرها.	- العقباني، **المصدر السابق**، ص ٦٧.

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الإخوة، محمد.(١٩٣٧). **معالم القربة في أحكام الحسبة**. كيمبرج: مطبعة دار الفنون.
- ابن الزّيات التّادلي، يوسف.(٢٠١٠). **التّشوّف إلى رجال التّصوّف وأخبار أبي العبّاس السّبتي**. الدّار البيضاء: مطبعة النّجاح الجديدة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن.(١٩٧٩). **المقدّمة**. بيروت: دار الكتاب اللّبناني.
- ابن خلدون، عبد الرحمن.(١٩٧٩). **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت: دار الكتاب اللّبناني.
- ابن خلدون، يحي.(١٩٨٠). **بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**. ج١. الجزائر: المكتبة الوطنية.
- ابن خلدون، يحي.(٢٠٠٧). **بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**. ج٢. الجزائر: دار الأمل للدّراسات والنشر والتوزيع.
- ابن صعد التّلمساني، محمد.(٢٠٠٤). **روضة النّسرين في التّعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**. الجزائر: ANEP.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد. (١٩٦٥). **أنس الفقير وعزّ الحقير**. الرباط: مطبعة أكدال.
- ابن مرزوق التّلمساني، محمد.(٢٠٠٨). **المناقب المرزوقية**. الدار البيضاء: مطبعة النّجاح.
- ابن مريم التّلمساني، محمد.(١٩٨٦). **البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- أبيش، يوسف.(١٩٨٣). "**المؤسسات الاقتصادية**". ضمن كتاب: المدينة الإسلامية، اليونسكو.
- بوتشيش، إبراهيم القادري.(٢٠٠٢). **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**. بيروت: دار الطليعة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- بوداود، عبيد.(٢٠٠٣). **ظاهرة التصوّف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع (القرن ١٣- ١٥م)**. وهران: دار الغرب للنّشر والتّوزيع.
- بورويبة، رشيد. لقبال، موسى. وآخرون.(١٩٨٤). **الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني)**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- بوعياد، محمود.(١٩٨٢). **جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري (١٥م)**. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- بروفنسال، ليفي.(١٩٩٠). **الإسلام في المغرب والأندلس**. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- التّنسي، محمد.(٢٠٠٧). **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من كتاب نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان**. الجزائر: وزارة الثقافة.
- الحسن مغار، مولاي.(٢٠٠٨/٢٠٠٩). **الحرف والحرفيون في المغرب الأقصى خلال العصر المريني**. أطروحة دكتوراه. مكناس: جامعة مولاي إسماعيل.
- دهينة، عطاء الله. (١٩٨٤). "**الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان**" ضمن كتاب **الجزائر في التاريخ**. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الدّوري، عبد العزيز.(١٩٨٧). **مقدّمة في التاريخ الاقتصادي العربي**. بيروت: دار الطّليعة للنّشر والتّوزيع.
- الرّصّاع، محمد.(١٩٦٧). **الفهرس**. تونس: المكتبة العتيقة.
- الزّجالي، عبيد الله. (دون تاريخ). **أمثال العوام في الأندلس**. ق٢. منشورات وزارة الدولة المكلّفة بالشؤون الثّقافية والتّعليم الأصلي.
- الطمّار، محمد.(٢٠٠٧). **تلمسان عبر العصور: دورها في سياسة وحضارة الجزائر**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد السّلام تدمري، عمر.(٢٠٠١). "**مشاهدات وأخبار عبد الباسط بن خليل الظّاهري في بلاد المغرب والأندلس**" من كتاب **الروض الباسم في حوادث العمر والتّراجم**. مجلة التاريخ العربي، العدد ١٧.
- عبد العزيز، محمد عادل.(٢٠٠٦). **الجذور الأندلسية في الثقافة المغربية**. القاهرة: دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- العقباني، محمد.(١٩٦٧). **تُحفةُ النَّاظِر وغنيةُ الذّاكر في حِفْظِ الشّعائر وتَغييرِ المَنَاكِرْ**.
- عمر موسى، عزّالدّين. (٢٠٠٣). **النّشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- فيلالي، عبد العزيز.(٢٠٠٧) **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
- لقبال، موسى.(٢٠٠٢). **الحياة اليومية لمجتمع المدينة الإسلامية من خلال نشأة وتطور نظام الحسبة المذهبية في المغرب العربي**. الجزائر: دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- ماسينيون، لويس.(١٩٢٠). "**الطوائف الحرفية والمدنية الإسلامية**". المجلة الدولية للسوسيولوجيا، ص ٤٧٣ – ٤٨٩.
- المجليدي، أحمد.(دون تاريخ). **التّيسير في أحكام التّسعير**. الجزائر: الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع.
- محمد عادل، عبد العزيز.(٢٠٠٦). **الجذور الأندلسية في الثقافة المغربية**. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- محمود لعرج، عبد العزيز.(٢٠٠٦). **مدينة المنصورة في تلمسان: دراسة تاريخية أثرية في عمرانها وعمارتها وفنونها**. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- المغيلي التلمساني، محمد.(١٩٦٨). **مصباح الأرواح في أصول الفلاح**. الجزائر: الشركة الوطنية الجزائرية.
- المقرّي التّلمساني، أحمد.(١٩٧٨). **أزهار الرّياض في أخبار عياض**. ج١. الرباط: صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتّحدة.
- النميري، ابن الحاج.(١٩٩٠). **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الوزّان الفاسي، الحسن.(١٩٨٣). **وصف إفريقيا**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الونشريسي، أحمد.(١٩٨١). **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- Brosselard, CH. (1861). «*La coudée Royale de Tlemcen* ». *Revue Africaine*, N25, P. P. 14-30.
- Damas: Bulletin d'Etudes Orientales Institut Français de Damas.
- Dhina, Atallah.(1984). ***Les Etats de l'Occident Musulman aux XIII, XIVe et XVe siècles.*** Alger: Office des Publications Universitaire.

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449